

الشعوب بالصورة التي جرى الترويج لها -وهي الطريقة النمطية الظاهرة المباشرة²- غطى على جهود أخرى جبارة تعاون عليها كل من اليهود والمتأمرة (المستبدين) العرب؛ من أجل التآمر "في قرى محصنة" بالسرية أو التسرب "من وراء جُدُر"³، ضمن مسيرة من الاختراق الشامل للأنظمة والتشبيك واسع الأرجاء مع قوى السياسة والأمن والاقتصاد وبعض قوى المجتمع والثقافة، مع الاعتماد على عامل الزمن في تجذير الدولة اليهودية لتصير قدرًا مقدورًا لا مفر منه أمام الأجيال التالية⁴.

ومن المهم في البداية التنبيه إلى أن ثورات 2011 -التي يستخف بها اليوم كثير من العرب وينفر من ذكرها كثيرون نظرا لما ترتب عليها من ويلات- مثلت بالنسبة للإسرائيليين ومخطط ترسيخ دولتهم، حدثًا تاريخيًا فارقًا بمعنى الكلمة، ليس بالنسبة لنظرتهم للدول التي قامت فيها الثورات وحسب، إنما بالنسبة للمنطقة بأسرها وبالأخص وضعية إسرائيل فيها⁵. لقد كان الأمر بمثابة الزلزال المرعب من انخيار مسيرة ما قبل الثورات التي أسست لشرق أوسط إسرائيلي المركز، تقع إسرائيل في عُقد شبكتها. ولقد جاء مصدر الرعب -وفق

² - سمية عبد المحسن، التطبيع والمقاومة عبر مائة عام من وعد بلفور، فصلية قضايا ونظرات، العدد السابع، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/hqt7ac>

³ - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بِيْتَهُمْ شَدِيدٌ حَسْبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، سورة الحشر، الآية 14.

⁴ - حول الاختراق الإسرائيلي انظر: بقية أوراق هذا العدد، خاصة: التحول في مواقف السعودية والإمارات تجاه إسرائيل: المواقف والعلاقات والدلالات، الاختراق الإسرائيلي لتركيا وإيران، إسرائيل وتفتت نسيج المنطقة العربية: القضية التركية نموذجًا.

⁵ - انظر:

- إبراهيم معمر، إسرائيل والثورة المصرية: قراءة في السجل الداخلي، في: العدد الحادي عشر من حولية أم تي في العالم "الثورة المصرية والتغيير الحضاري والمجتمعي"، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 2012، ص ص 459-468.

- أمجد جبريل، الدبلوماسية الإسرائيلية بعد الثورة المصرية: دراسة في موقع إسرائيل من التفاعلات الإقليمية والتحالفات الجديدة، نفس المرجع السابق، ص ص 469-488.

تحولات وضعية إسرائيل وصورتها في المنطقة العربية: بين السياسة وصناعة الصورة..*

أ. مدحت ماهر الليثي*

إشراف ومراجعة: د.نادية محمود مصطفى

هل هي القوة المادية التي يسندها فكر القوة والإيمان بما، أم تراها قوة المعنى والفكر حتى ولو كان سلبيًا وضالًا، هي التي تقف وراء ذلك التحول الكبير الذي آلت إليه وضعية إسرائيل وصورتها في المنطقة العربية اليوم؟

هذه الأسطر الموجزة تفترض أن هذين ليسا بديلين، بل نحن أمام جدلية متكاملة تفسر ذلك الحال وهذا المآل وتتوقع مستقبل إسرائيل من حيث: وضعها الراهن بين العرب وصورتها في عقولهم الحالي. هذه الجدلية تتكون من تضافر تحولات السياسة والفكر العربيين وتبادلها سمة الوهن¹ في السياسات والتصورات، وأن الجدل بين هذين الوهين هو ما مكن لدولة اليهود في الجغرافيا والتاريخ العربيين المعاصرين تدريجًا، وفي الذهنية والنفسية العربيين على المستوى الرسمي خاصة. إن فشل عملية تطبيع دولة الكيان الإسرائيلي لدى

* يعود فضل كبير في إخراج هذه الورقة إلى الجهد الذي قامت به الباحثتان بمركز الحضارة نادية مصطفى عبد الشافي، ومروة يوسف، في جمع المادة الأساسية، وما قامت به نادية مصطفى عبد الشافي من توثيق لعدد كبير من الهوامش، فإليهما توجه بشكر جزيل.

*المدير التنفيذي لمركز الحضارة للدراسات والبحوث

¹ - انظر في هذا الشأن: سيف الدين عبد الفتاح، عقلية الوهن، القاهرة: دار القارئ العربي، 1991.

البيانات الإسرائيلية مختلفة المصادر والجهات - من جهتين واضحتين: الشعوب (الديمقراطية)، والحركة الإسلامية أو بتعبير إسرائيلي وغربي: الإسلام.⁶

من ناحية أخرى، لقد جاءت الثورات القطرية العربية منذ منتهى العام 2011 وما تلاها من ثورات مضادة مدبرة إقليمياً، لتكشف وتعري تلك الحقيقة العربية الكبيرة: أن الأنظمة الحاكمة ضلعت في عملية تاريخية لحماية ترسيخ الكيان الصهيوني والعمل على تأليف العقل الجمعي العربي على حتميته. والجديد اليوم أن امتدادات تلك الأنظمة تعمل اليوم على المكشوف لتثبيت ذلك في العقول بالوسائل كلها: المادية والناعمة، وكأنه الفصل الأخير من رواية تأسيس دولة اليهود التي استغرقت قرناً من الزمان. ومن ثم يجب التمييز بين الكشف الذي قامت به الثورات من ناحية، وبين السياسات والتصورات المنشئة لوضعية إسرائيل المركزية والتي سبقت الثورات من ناحية ثانية، والانكشاف والسياسات التي أعقبتها إلى اليوم من ناحية ثالثة.

ومن ثم يمكن تتبع معالم ذلك التحول الجدلي في وضعية إسرائيل ضمن تحولات العرب دولا وشعوبا ودلالات ذلك عبر المراحل الثلاث: ما قبل الثورات، وأثناء حراكها، وصولاً إلى الثورات المضادة وحتى نهاية عامنا هذا 2017 الذي بلغ الذروة مع مشهد الصمت العربي الكبير من محاولة الأمريكيين تمليك القدس الشريف لليهود.

أولاً - معالم في مسيرة ما قبل الثورات:

مثلت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (أوائل القرن الرابع عشر الهجري) مرحلة تمهيد الأرض الإسلامية لاستزاع كيان يهودي صهيوني فيها، لم يكن في البال الإسلامي. ونقول "الإسلامي"؛ إذ كان ذلك هو التعبير المعبر عن الواقع والمعبر به دون غيره من دوائر الانتماء التي

⁶ - "زوال إسرائيل" على أجندة الجدل الصهيوني، موقع الجزيرة نت، 27-1-2012، متاح على الرابط التالي: <https://goo.gl/sj45ZW>

تصدرت بعد ذلك بالتجادل والتبادل: الوطنية والقومية⁷. وقد عملت سلطات الاحتلال الأوروبي على جانبيين: إضعاف الخلافة الإسلامية واستغلال ضعفها من جهة، وغرس بذور مشروع أوروبا الصهيوني في المدة نفسها من الجهة الأخرى، في غفلة من العرب قياداتهم وجماهيرهم، حتى أفاق الكافة على إعلان الخارجية البريطانية ما عرف بوعده بلفور 2 نوفمبر 2017⁸. مما يؤكد الجمع بين المؤامرة السرية والسياسات المعلنة أن إعلان ذلك الوعد سبقته اتفاقية سرية لتقسيم ما تبقى من بلاد العرب تابعاً للسيادة العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وعرفت باتفاقية سايكس-بيكو والتي زامنت انجرار بعض العرب (الشريف حسين بن علي) لمقاتلة العثمانيين تحت راية الأوروبيين في الشام والجزيرة⁹؛ بينما كانت الجائزة الخاصة -وهي فلسطين- يتم إعدادها والوعد بها.

من هنا يتفسر إعلان الانتداب البريطاني على تلك القطعة من أرض العرب (فلسطين) التي لم تميز من قبل بحدود عما حولها من أرض الشام، ويُفهم إقرار عصبة الأمم بذلك، وسكوت القيادات العربية البازغة ساعتها عن ذلك؛ وعلى رأسهم أبناء الشريف حسين في العراق والأردن وسوريا، وابن سعود في نجد والحجاز، وأمراء المشيخات شرق الجزيرة، فضلاً عن حكام مصر والسودان. ويتفسر أيضاً ذلك التحول الكبير من "الإسلامية" منطلقاً ورايةً للحركات الداعية للاستقلال السياسي عن الأوروبيين إلى المستند الوطني أو القومي العلماني أو كليهما. فبينما تقدم المشروع الصهيوني باعتباره مشروع وطن قومي ولكنه مستند في الحقيقة المؤكدة على فكرة وعقيدة

⁷ - انظر في هذا الشأن:

- طارق البشري، بين الإسلام والعروبة، القاهرة: دار الشروق، 1996.

- _____، الحوار الإسلامي العلماني، القاهرة: دار الشروق، 1996

⁸ - انظر: العدد السابع من فصلية قضايا ونظرات، مائة عام من وعد بلفور المسار والمآلات، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/zUt4sK>

⁹ - انظر: بسام عبد القادر النعماني، الوطن العربي بعد 100 عام من اتفاقية سايكس بيكو: قراءة في الخرائط، تونس: مونت بليزير، 2016.

ورابطة دينية بالأساس، تخلى العرب عن المستند الديني لصالح انتماء قومي علماني المرجعية، أكد إذعائهم العملي والفكري لتقسيم سايكس-بيكو ومن ثم ترسيخهم له.

وبناء عليه، فحين اندلعت مصادمات البراق 1929 بين العرب واليهود في القدس تم تصويرها للعقل العربي والإسلامي باعتبارها صراعًا طائفيًا من النوع القديم بين يهود طامعين في حائط من حوائط المسجد الأقصى ومسلمين منافحين عن مسجدهم¹⁰؛ ومن ثم لم تأخذ الثورة "الفلسطينية" 1936 بين بقية العرب والمسلمين ذلك الحظ من الاهتمام الذي أخذته وقتها سجالات الحركات الوطنية والقومية مع الاحتلال الأوروبي؛ سواء في سوريا ولبنان 1935، أو مصر والعراق 1936، أو عند إعلان دولة السعوديين قبلها عام 1932 بالتفاهم مع بريطانيا والأمريكيين. وتدل على ذلك مثلًا دواوين الشعر المعاصر للأحداث وكتابات المؤرخين¹¹. ومن ثم جاء الطرح البريطاني بتقسيم فلسطين 1937 (لجنة بيل) غير لافت للمشروع الكلي اللهم إلا لدى الجزء من العرب الذي سيعرف بعد ذلك بالفلسطينيين؛ اندراجًا مع التمييز القطري والقومي المتصاعد والمحمي بقوة الحكومات ما بعد الولايات العثمانية.

ولهذا أيضًا كان عنوان حرب 1948 التي أعلنت بها دولة إسرائيل للوجود الدولي وتم ترسيمها علميًا أنها "حرب فلسطين"، وما سميت بالنكبة العربية إلا من قبل قوميين مثاليين استغرقوا عقدين آخرين حتى يدركوا أن القضية أعمق

¹⁰ - راجع العدد السابع من فصلية قضايا ونظرات، مرجع سبق ذكره.

¹¹ - من أهم النماذج على ذلك نموذج أحمد شوقي أمير الشعراء العرب المحدثين والملقب أحيانًا شاعر العروبة والإسلام وأمير الدولتين وأمير القوافي كما لقبه حافظ إبراهيم يوم تكريمه وتنصيبه أميرًا للشعراء، وهو من نعى الخلافة إبان إسقاطها على يد أتاتورك، وتابع ثورة سوريا بقصيدته (نكبة دمشق) 1926، ودعوته لوحدة سوريا في قصيدته (دمشق)، وتابع ليبيا ولبنان وغيرها، لكنه مع ذلك لم يأت على القضية الفلسطينية ولا وعد بلفور ولا أحداث البراق بذكر، مما أثار دهشة النقاد. انظر: عادل أبو عمشة، أمير الشعراء أحمد شوقي والقضية الفلسطينية؛ في:

<https://goo.gl/KPKCNS>

وأعقد من كونها إسرائيلية، أو فلسطينية، أو حتى عربية بالمفهوم القومي العلماني¹². ومع ذلك فقد نجحت أساليب الدعاية الرسمية التابعة للنظم العربية الحاكمة في الترويج لمقولات: إسرائيل، فلسطين، جنبًا إلى جنب شعار الصراع العربي الإسرائيلي. وإذا كانت الفترة الأولى مكنت للكيان اليهودي بفعل وهن المستند الوطني القطري الانكفائي العربي، فإن فترة المد القومي العربي من بعد النكبة، والتي أُعلن فيها أن إسرائيل هي العدو الأول والمشارك للعرب - ولمدة عقدين ثم بنسبة متراجعة لعقدين آخرين - قد كانت فترة الخداع الذاتي الأكبر: شعارات قومية وحدوية وصراعية ضد الكيان الغاصب، تحتها سياسات تكريس رباعية التجزئة والتبعية والاستبداد والتخلف التي لا تزيد الكيان الغاصب إلا تمكينًا.

ومن ثم كانت مفهومةً -لدى العارفين- ردود الأفعال الرسمية على عدوان 1967 والتي كانت -رغم شعاريتها- مرتعشة متلعبة بين ما يُعلن في بلادنا (لا اعتراف، لا تفاوض، لا صلح..)، وبين ما يعرف قياديًا (رفض التقييد بسياسة موحدة، أو مشتركة تجاه إسرائيل)، وما يعرفه العالم خارج منطقتنا ساعتها (من اعتراف الحكومات بدولة إسرائيل على أرض ما قبل يونيو 1967 حين وافقوا جميعًا في الأمم المتحدة على قرار مجلس الأمن رقم 242 للعام نفسه بل طالبوا بالاستناد إليه في حلّ إشكال احتلال سيناء والجولان لا أكثر وهو مبنيٌّ على هذا الاعتراف). وبات من بعد ذلك مفهومًا ردّ الفعل العربي على حريق الأقصى 21 أغسطس 1969، ومدى التناقل في التوجه نحو راية إسلامية -ولو شكلية- ستعرف منذ ذلك العام باسم "منظمة المؤتمر الإسلامي"، والتي لم تحضر مصر -على سبيل المثال- قمتها

¹² - سعد الدين إبراهيم، علم النكبات العربية، القاهرة: المصري اليوم، العدد 1105، 2007، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/7ijbES>

التأسيسية لاختلافها مع المملكة السعودية تحت حكم الملك فيصل.

في كل مرحلة، كانت إسرائيل تجني ثمرة وتضع محلها بذرة جديدة، وإذا كانت نقطة عدوان 1956 على مصر جاءت جنبًا لثمار الرعاية الأوروبية لإنشاء إسرائيل وإيدانًا بالدخول الأمريكي إلى ساحة هذه الرعاية، فقد كانت نقطة 1967 جنبًا لثمرة الاعتراف العربي الرسمي بإسرائيل "دولة" من قبل الأنظمة العربية، وغرسًا لبذرة لها ماضيها تتعلق بالمنطقة العربية كلها وتكييفها في العقل العربي نفسه؛ حيث أزاح العرب - فيما يشبه الطفرة- أنشودة "وطني العربي ووطني الأكبر" من أجل تمرير التسمية الأمريكية الجديدة لهذا الوطن باسم: **الشرق الأوسط**. ولم تحل حرب أكتوبر 1973 والانتصار المصري العربي المحدود فيها دون استكمال مشروع تبديل هوية العرب ليس من الإسلام إلى العلمانية (المتأوربة ثقافيًا)، ولكن إلى الشرق-أوسطية (المتأمركة سياسيًا ثم ثقافيًا أيضًا).

وللأسف فقد مضى المشروع الأمريكي لإعادة رسم وضع إسرائيل في المنطقة من خلال تغيير المنطقة؛ بدءًا من رأسها وهي مصر واستلحاقًا لقلبها في الجزيرة والخليج، الأمر الذي تجلّى في خطاب السادات في القدس 1977، ثم محادثات كامب ديفيد 1978، ثم المعاهدة المصرية الإسرائيلية 1979، والتي ضغطت على النفس العروبي الأخير باسم جبهة الصمود والتحدي (العراق وسوريا واليمن والجزائر أساسًا وربما فقط)... مضى ذلك كله في ظل تكبيل أيدي المقاومة العربية وأقدامها، بل لسانها.

لقد كان التحول الأسوأ في تاريخ تمكين إسرائيل من الجسد العربي يتمثل في الردة الفكرية التي صاحبت خطوات السادات؛ وقادها ليبراليون مصريون باسم مصر أولاً رداً على الموقف العروبي الراض لكامب ديفيد، والتي عملت إعادة تقديم صورة اليهودي والإسرائيلي من خلال الصحافة والفن والأدب، وظهرت أصداؤها في الشام حتى لدى بعض الكتاب

الفلسطينيين أنفسهم. وشيئًا فشيئًا انجذب يساريون عرب للخط ذاته اتصالاً باليسار الأوروبي والإسرائيلي، وبرزت تحولات قومية في الاتجاه نفسه؛ ما أوحى باستنفاد الاتجاهات الفكرية العربية العلمانية لطاقتها على خلفية السياسات القُطرية والإقليمية العربية والتحويلات العالمية لاسيما باختيار المنظومة السوفياتية 1989 وما تلاها من موجات تحول أيديولوجي كبير¹³.

ضمّ إلى ذلك المسار الأنكى لشيخو الإسلام لاسيما الرسميين الذين انتقلوا من الحكم بالكُفر على من يبيع أرضًا للصهاينة/اليهود في فلسطين كما جاءت في فتاوى الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر بعد عبد الناصر، إلى تصدير قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) بإزاء خط السادات المسمى بالسلام مع الإسرائيليين؛ حتى انبروا يسمون من يخالف ذلك بالإرهاب والتطرف¹⁴.

ولكن تأتي الرياح بما لا يشتهي المغتصبون؛ فلم يمض ذلك المسار على الوتيرة الأمريكية تمامًا، إذ أحدثت صدمة الشعوب المسلمة والنخب الوطنية والقومية العلمانية بهزيمة 1967 أثرًا مهتمًا في الفكر والشعور والواقع، آل إلى عودة شعبية عريضة إلى المستند الإسلامي في فهم الأمر الجاري واستفهام الواجب عمله، فكانت السبعينيات جامعة بين غرس بذور المشروع الأمريكي على المستوى الرسمي في ناحية، وبين تجدد بوادر مشروع حضاري مقابل -في الناحية الأخرى- تقوده التكوينات الشعبية هو "المشروع الإسلامي" والذي أشبه -في ظاهره- الطفرة، لكنه في الحقيقة كانت له

¹³ - انظر في هذا الشأن: عبد العزيز مصطفى كامل، العلمانيون وفلسطين: ستون عامًا من الفشل وماذا بعد؟، لندن: سلسلة تصدر عن مجلة البيان، خاصة القسم الثاني: أوام السلام... في أجواء الصدام، ص ص 65-126.

¹⁴ - انظر في تحولات الفتاوى الأزهرية عن فلسطين وتبعيتها للسياسات والخيارات السياسية: جماعة من العلماء (تقديم)، فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف حول تحوير فلسطين والأقصى الشريف، سلسلة فتاوى كبار علماء الأزهر الشريف (7)، (القاهرة: دار اليسر، 2011).

كانت السياسات الدفاعية والاقتصادية العربية الرسمية منذ طفرتي الانفتاح في مصر والبتترول في الجزيرة والخليج ترسل للعارفين رسائل شديدة الوضوح: أن المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الذي ركنه الأساسي حضور إسرائيل، له قابلية عالية، ولكن بغير وعي من معظم الشعوب العربية. ومن ثم جاء الطرحان الإسرائيليان المتكاملان في منتصف التسعينيات لإعادة تشكيل المنطقة يتحركان من الحكومات إلى الشعوب؛ أحدهما- طرح حزب العمل الإسرائيلي الذي قدمه شيمون بيريز باسم "الشرق الأوسط الجديد"¹⁷ عارضاً شراكة اقتصادية وتنموية إقليمية شاملة، والآخر- طرح الليكود الذي كتبه بنيامين نتنياهو باسم "مكان بين الأمم" أو مكان تحت الشمس¹⁸، واستل منه مشروعاً مشتركاً بين إسرائيل والغرب ومن لحق بهم من أنظمة العرب باسم "محرابة الإرهاب"¹⁹، الذي لا يعدو أن يكون "الإرهاب الإسلامي"²⁰.

وبهذا تضافرت السياسات في صناعة الوضع الإسرائيلي متزايد المركزية وتبديل التصورات عن إسرائيل من العدو الأول والمشارك إلى مشكلة قابلة للحل سواء بتسوية سياسية أو مشروعات اقتصادية. وقد مضى الطرحان الإسرائيليان مُضَيَّ القطار السريع في التسعينيات (الشراكة الاقتصادية بالكوز وتصدير الغاز المصري والقطري مثلاً ومحاربة الإسلاميين باسم الإرهاب في فلسطين وحولها)، وأخذت بهما أغلب الأنظمة

¹⁷ - محمد كمال محمد، مآلات مواقف التيار الفكري اليساري الإشتراكي العربي من المشروع الصهيوني، فصلية قضايا ونظرات، مرجع سابق، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/n4CqRb>

¹⁸ - مدحت ماهر، الدولة اليهودية من المشكلة إلى المكائنة: مائة عام بين وعد بلفور وموعد التصهين العربي، المرجع السابق، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/TB9YUY>

¹⁹ - انظر: بنيامين نتنياهو، محرابة الإرهاب، ترجمة عمر السيد وأمين حامد، (القاهرة: النهار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1996)، ص ص 73-95.

²⁰ - شيماء عزت، صحيفة بريطانية: الرياض وتل أبيب تبحثان إقامة علاقات اقتصادية، فرانس 24، 19-6-2017، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/EW9FWm>

جذوره منذ صدمة إسقاط الخلافة منتصف العشرينيات. ومن هنا تدخل تحولات وضعية إسرائيل في المنطقة العربية طوراً أكثر تعقيداً؛ عماده الصحوة الشعبية المركبة من التعاطف والتضامن الإسلامي والدعوة به إلى السياسات المستقلة خاصة عن الغرب والأمريكيين ورفض الاستبداد الذي أنتجته نظم ما بعد الاستقلال والربط بين ذلك الاستبداد وبين قضية فلسطين¹⁵.

وقد تجادل المشروعان الشرق-أوسطي والإسلامي ليزيدا الفصام عبر الثمانينيات والتسعينيات ما بين الشعوب العربية وحركاتها الوطنية الديمقراطية الإسلامية في جهة وأنظمتها الحاكمة والمشروع الأمريكي الصهيوني في الجهة الأخرى. فكانت انتفاضة 1987 فلسطينية شعبية عربية إسلامية، توازيها عملية إنهاء الصمود والتحدّي القومي بإعادة الجامعة العربية إلى مصر-مبارك 1989، ثم عقد مؤتمر مدريد برعاية أمريكية لتدشين مرحلة التسالم العربي-الإسرائيلي الشامل 1991 (والذي اشتكت فيه خارجية النظام المصري من هرولة بقية العرب خاصة الأردن إلى إعلان التسوية مع إسرائيل)، وصولاً إلى ما تلاه من أوسلو 1993 واتفاق إعلان المبادئ بين ممثلي فلسطين وإسرائيل 1994، واتفاق وادي عربة الأردني-الإسرائيلي في العام نفسه، ودخلت سوريا-الأسد في الإطار ذاته. وهكذا بينما تتجدد همة الشعوب للانتفاض والمقاطعة وإفشال مشروع التطبيع كانت الأنظمة تعلن عن تطبيع منفصل باسم وهمي جديد: "الأرض مقابل السلام"¹⁶.

¹⁵ - نعيمة أبو مصطفى، القضية الفلسطينية: ماذا حدث لها وما مستقبلها بعد الثورات المضادة، إضاءات، 14-5-2015، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/TYSXjV>

¹⁶ - سهام القحطاني، العرب وإسرائيل.. التطبيع من أجل الخلاص، مركز التخطيط للدراسات الاستراتيجية، 27-8-2016، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/gtK2BV>

العربية؛ سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وأغلبه لم يكن معلناً. وتكفل ذلك والتأمت مساراته بإعلان الولايات المتحدة توسعة الحرب على الإرهاب بعد 11 سبتمبر 2001، وجعلها حرباً عالمية تجنّد فيها الجيوش وأجهزة الشرطة والمخابرات العربية والإسلامية تحت قيادة الولايات المتحدة؛ ولتكون الثمرة الاستراتيجية أوسع مما قبل باسم الشرق الأوسط الكبير أو الموسع. أضف لهذا الاستعراض للسياسات العربية والأمريكية: سياسة شد الأطراف الإسرائيلية والتوجهات الرسمية للعرب فرادى بعيداً عن العروبة والإسلام؛ للانضمام إلى شراكات شرق-أوسطية واتحادات أوروبة-أوسطية تكون إسرائيل عنصراً أساسياً فيها. لقد أضحت إسرائيل شريكاً رئيساً واختزنت أنظمة كثيرة في أمتنا العربية والإسلامية؛ من قطر والإمارات شرقاً إلى المغرب وموريتانيا غرباً، ومن تركيا وكوردستان وجمهوريات آسيا الوسطى شمالاً إلى إريتريا وجنوب السودان جنوباً، ومعظم النخب العربية إما عمية أو متواطئة، بينما الشعوب غارقة في شغلها القطري المتعلق بالمعايش وقليل من المعلومات عن حقائق الأمور.

مهّم جداً أن نلتفت إلى طبيعة القوى الداخلية العربية التي خضعت تدريجياً للتطويع وتوالت قبيل الثورات على مشروع التطبيع؛ فلقد بات على رأسها: الجيوش والأجهزة الأمنية (تدريجياً منذ أربعة عقود).

كانت الجيوش العربية هي الدرع المواجه الأول ضد إعلان دولة إسرائيل 1948، وتمت العقيدة القتالية لمعظم جيوش دول الطوق على العداة للمشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي، ليس نظرياً ولكن من خلال حروب نظامية متتالية ودعم عسكري للفدائيين الفلسطينيين، وبغض النظر عن الألاعيب السياسية التي تمارسها عادة الحكومات. لكن إعلان السادات أن حرب أكتوبر 1973 آخر الحروب مع إسرائيل وإلحاق ذلك بمسيرة كامب ديفيد المشار إليها، ثم اندراج العسكريين المصريين -قبل غيرهم من العسكريين العرب- في

مشروع التسوية التنازلي، كان ذلك تحولاً شديداً الخطورة لم تكشف تداعياته سوى الثورات على النحو المشهود. لقد كانت الجيوش -خاصة في دول الطوق- آخر القوى المنتظر تطبيعها إسرائيلياً، لكن الحاصل أن تحقيق ذلك -وإن استغرق وقتاً- فقد أثمر آثاراً شديدة الوطأة على الثوابت والمصالح العربية. فالجيوش تُطبع ببطء لكنها حين تطبع تتحول لتفرض التطبيع نفسه على الشعوب بالنار والحديد. وما هذا منا اليوم ببعيد.

مهّم جداً أيضاً أن نلاحظ أن الصراع السياسي الأساسي في المنطقة تطور قبل الثورات بحيث يتركب فيه الداخلي والإقليمي والعالمي، على صورة صراع محاور أو مشاريع لتشكيل المنطقة بما فيها دواخل الدول؛ وأن الخيط الناظم لهذا الصراع يتركب من أطراف: المشروع الأمريكي والمشروع الصهيوني متقاطعة جداً مع الأول، للمشروع الاستبدادي السياسي العربي الذي تقوده اليوم الجيوش وتتوسع في مجالاته باسم الدولة-القومية القطرية، ثم المشروع الحركي الإسلامي الذي ألقته الثورات بالطموح الشعبي للتحرر (الديمقراطي الاستقلالي)؛ الأمر الذي يتجلى أكثر ما يتجلى هذه الأيام وتعكسه سياسات الأنظمة العربية لاسيما في مصر والشرق والخليج وخطاباتها، وكذلك خطابات الإسرائيليين وسياساتهم الفجة. ومن ثم يدور الصراع العربي الداخلي بين العسكريين والإسلاميين على ساحات عدة؛ أهمها ساحة إسرائيل ووضعتها في الجيوستراتيجية العربية وصورتها في العقل العربي المعاصر.

ومن هذا الاستعراض يتبين لنا أن الحالة التي سبقت الثورات الشعبية العربية 2011 لم يكن ينقصها سوى القليل لإعلان تنويع إسرائيل قائداً أو مركزاً للمنطقة (العربية سابقاً) أو للشرق الأوسط بتعبير ذلك السياق، لكن الثورات كان لها قول آخر كاد أن يغير الأمور رأساً على عقب.

ثانياً- الثورات تقب في جدار مشروع مركزية إسرائيل في المنطقة:

منذ السبعينيات، أصبحت الشعوب والتكوينات المعبرة عنها -لاسيما ذات الثقافة والفكرية الإسلامية- هي الورقة التي تستعصي على المشروع الأمريكي الصهيوني، والصوت النشاز في مسار التصهين الرسمي العملي (غير العلني في أغلبه). ولقد تعثرت مسيرة الشعوب أمام الجدر المتعددة من السياسات الاستبدادية الرسمية وأوضاع التخلف والدعايات الإعلامية والفنية المزيفة، وحيل بينها وبين التواصل عبر القومي، ما كرس لديها وضعية "فضية فلسطين" الفلسطينية، وصورة الأزمة العربية الموزعة على الأقطار، اللهم لولا القدس الإسلامية الجامعة التي حفظت الثقافة الدينية الأساسية الارتباط بما على الأقل معنوياً، وبخاصة الارتباط بمسجدها الأقصى المذكور في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية.

ومن ثم جاءت الثورات حاملة في طياتها نفساً شعبياً استقلالياً تجديدياً في النظر لقضية فلسطين، وجاءت أيضاً حاملة الإسلاميين إلى صدارة تحدي الدولة اليهودية وسدة الأمور في الأقطار. وقد كشفت أحداث العامين 2011 و2012 عن ذلك بوضوح. وإذا كانت الثورات في مطالعها بدت فُطرية لا عناية لها بالشأن الخارجي إلا رمزاً كما في النعي على الأنظمة المثار عليها تبعيتها للأمريكان وللصهيونية في بعض الشعارات، فإن الثورات سرعان ما عبّرت عن موقفها من إسرائيل مع أول بادرة اعتداء إسرائيلي قتل فيها جنود مصريون على الحدود مع إسرائيل سبتمبر 2011 في ظل إدارة المجلس العسكري لمصر؛ إذ انتفض شباب مصر -ضمن زخم ثورة يناير- لمهاجمة السفارة المصرية في مشهد شعبي غاضب، تم على أثره ترحيل السفير الإسرائيلي ليلتها مباشرة إلى تل أبيب، ثم نقل السفارة إلى مكان آخر بالقاهرة يتيسر تأمينه أكثر من موقعه المطل على كوبري جامعة القاهرة. كان مثل ذلك وأكثر منه متوقعاً حال تقدم الثورة السورية ذات

الأرض المحتلة من قبل اليهود، وكذا في تونس واليمن وليبيا وغيرها من الأقطار التي لم يزل الحس العربي لدى شعوبها ذا بال.

ومع تصعيد الثورات للتيار السياسي الإسلامي، تأكّد أن الأمور تمضي ضد تيار الأسرلة. فبعد قليل من التوجس وجس النبض تبين أن توجه الدكتور مُجّد مرسي -أول رئيس مصري منتخب بعد الثورة والمنتسب لجماعة الإخوان- لن يكون قابلاً للاحتواء وأن تغييره للسياسة المصرية عن نمط حسني مبارك لن يكون يسيراً. لقد كشف خطاب مرسي تجاه فلسطين وغزة وسيناء والثورة السورية وإجراءات حكومته منذ الأشهر الأولى عن توجه لا يحمل مراعاة لخاطر إسرائيل بل مرشح إذا استمر واستحكم أن يوقف ويصد تيار الأسرلة. برز ذلك في توجيه مرسي الجيش المصري لشن عملية عسكرية ضد الإرهاب في سيناء بعد مقتل مصريين جنود واختطاف آخرين وتحريك المُجنزرات الحربية الثقيلة إلى العمق السيناوي (جبل الحلال) أغسطس 2012، دون تنسيق مع إسرائيل أو مراجعة قيود معاهدة السلام في مثل تلك الحالة، متجاوزاً بسرعة شديدة تقليداً أمينياً مصرياً من السبعينيات.

تأكّد التوجّه الجديد بما لا يدع مجالاً للشكّ إبان العدوان الإسرائيلي على غزة نوفمبر 2012 وإعلان مرسي موقفاً غاضباً تجاه إسرائيل واحتضانه للفلسطينيين بفتح المعبّر وإدخال المعونات المختلفة صحبة رئيس الوزراء المصري وأمير قطر السابق والقوى الشعبية المصرية والعربية، بالإضافة إلى سحب السفير المصري من تل أبيب. يضاف إلى ذلك استعداد الرئاسة المصرية الجديدة للاحتفاظ بمسافة غير تابعة للسياسة الأمريكية في المنطقة ومن ذلك استعدادها لفتح علاقات مع إيران وتحديد الدماء في العمل العربي والجامعة العربية، وممارسة دور مستقل ومبادر كما في مبادرة حل الأزمة السورية من خلال رباعية مصر والسعودية وتركيا وقطر. ولعلنا اليوم نرى أن إسرائيل لم تشنّ هذه الهجمة على غزة إلا

وصلت إليها العلاقات بين إسرائيل ومصر. وبالفعل توالى التصريحات بالمخاوف والإحباطات الإسرائيلية من وصول مُجد مرسى للحكم واعتباره ثقباً خطيراً في إعادة ترتيب المنطقة إسرائيليًا. يقول عضو الكنيست ميخائيل بن آري: "إن فوز مرسى هو المسمار الأخير في الوهم المسمى بالسلام مع مصر، والذي كلفنا ثمنًا باهظًا، ومن يعرف الآن ماذا ينتظرنا على الحدود الجنوبية والتي تعتبر الآن إسلامية"²².

في هذه الآونة، نشرت صحيفة "ذا ميكرو **The marker**" الاقتصادية الصهيونية تقريرًا أفادت فيه أن نفقات ميزانية الحرب الإسرائيلية عام 2010 كانت تبلغ 64.4 مليار شيكل، ارتفعت في أعوام 2011 و2012 إلى 66.8 مليار شيكل. وفي عام 2013 في بقية سنة د.مُجد مرسى نشرت إسرائيل خططًا لبناء وتجهيز أربعة ألوية جديدة على حدود الدولة الصهيونية مع مصر في سيناء؛ مما جعل الموازنة ترتفع إلى 70 مليار شيكل²³. وبالمثل كانت الجبهة الشمالية في سوريا ولبنان محل ترقُّب إسرائيلي مشابه، وهجوم على كل من حزب الله اللبناني وإيران واحتمالات تعاضم قوتهما من جهة وعلى القوى الثورية المناوئة لنظام الأسد باسم الإرهاب الإسلامي (متمثلاً في الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة ثم تنظيم الدولة) من الجهة الأخرى. وفي يونيو 2012 طلبت قيادة الجيش الإسرائيلي من رئيس الوزراء نتيناهو زيادة الميزانية العسكرية بمبلغ 15 مليار شيكل (نحو أربعة مليارات دولار) أي ما يعادل ربع الميزانية العسكرية، وجاء في الطلب أن السبب "سد الاحتياجات الطارئة الناجمة

لاختبار رد الفعل المصري الجديد؛ الأمر الذي ترتب عليه التحول إلى التشجيع الرسمي على الرئيس المصري وتجديد نبرة الحرب على الإرهاب (الإسلامي) ولصقه بجماعة الإخوان المسلمين وسائر ما يسمونه "الإسلام السياسي". كما أن عدوان إسرائيل على غزة في 2014 بعد رحيل مرسى ومجيء السيسي إلى السدة لم يكن كذلك سوى أبواب اختبار لمدى إعادة الأمور إلى نصابها الإسرائيلي.

من المهم مراجعة المنظور الإسرائيلي للثورات العربية ورواية الجهات الإسرائيلية لأثرها على خريطة المنطقة وموقع إسرائيل منها.

لقد قدمت إسرائيل رؤية شديدة الكراهية للثورة وتباكت على كنزها هي الاستراتيجية حسني مبارك ونظامه برجالته والأنظمة المشابهة لنظامه، وانبرت دوائر السياسة والجيش والأكاديميا والإعلام في إسرائيل تحذر العالم من الثورات التي تعيد التهديد إلى وجود إسرائيل نفسه لا مجرد مكائنها وأمنها الحدودي. وقد كثرت الكتابات الراصدة لتلك الحالة ساعتها سواء تجاه ثورة مصر أو المنطقة²¹.

ففي الأيام الأولى لثورة مصر ينقل التلفزيون الإسرائيلي عن بنيامين بن أليعازر تأكيده على أن أي نظامٍ قد يحكم مصر "سيحترم معاهدة السلام ويعتبرها تصب في مصلحة إسرائيل، إلا في حالة وصول نظام مدعوم من حركة الإخوان المسلمين"، وذكر أيضًا أن عمر سليمان -الرئيس الأسبق لجهاز المخابرات العامة المصرية والذي توفي لاحقًا- "تمسك بقوة بهذا الموقف"، وذكر أن مبارك قال له إنهم جهزوا الجيش مسبقًا لمثل هذا الموقف. وقبيل رحيل مبارك بأقل من أسبوع 2011/2/6، أكد إيهود باراك وزير الدفاع الإسرائيلي ساعتها بأن الجيش في مصر هو ضمانة استمرار المسيرة التي

²² - نائب إسرائيلي: فوز مرسى "مسمار أخير بنعش السلام"، فلسطين أون لاين، 2012/6/25، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/rEoEJW>

²³ - أحمد جمال زيادة: مصر السيسي التي تحبها إسرائيل: لقاءات سرية وعشق علني، 2017-2، القاهرة: موقع إضاءات، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/HGL5HT>

²¹ - انظر على سبيل المثال: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، الموقف الإسرائيلي من ثورة 25 يناير المصرية، تقرير معلومات (23) // (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2012).

عن فوز ممثل الإخوان المسلمين مُجد مرسى بالرئاسة المصرية، وتصريحاته حول إعادة النظر في اتفاقية كامب ديفيد²⁴.

ومن ثم كان تعامل إسرائيل الأساسي في هذه الفترة إنما يجري مع القوى الضالعة في مشروع ما قبل الثورات وعلى رأسها القوى الأمنية والدبلوماسية. فقد قام وزير الخارجية البحريني خالد بن أحمد آل خليفة -على سبيل المثال- بلقاء مسؤولين إسرائيليين كبار في واشنطن بعد اندلاع ثورة «14 فبراير»، بهدف مناقشة الأوضاع المتعلقة بالبحرين والاستفادة بأية أفكار للقضاء على المعارضة وكيفية إفشال الثورة. وأعقبه عقد لقاء سري مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتيناهو حسب ما ذكرته الصحيفتان الإسرائيليتان «هآرتس» و«يديعوت أحرونوت» في 27 آذار/ مارس 2011. وقد قامت حكومة البحرين من قبل بإغلاق مكتب مقاطعة إسرائيل، وأصدرت مؤسسة النقد قرارًا بمنع البنك العربي من تحويل المساعدات لفلسطين.

وجاء الانقلاب على الثورات بثورات أو هجمات مضادة على المحاور العربية كلها بتنسيق مع إسرائيل في أغلبه، مباشرة كما ما في الحالة المصرية والكردية (باتساعها)، أو بطريق غير مباشر عبر قوى منطبعة إسرائيليًا غربية وشرقية، في الحالات الأخرى.

فعن مصر على سبيل المثال الأهم، كشف المحلل العسكري الصهيوني روني دانيال أن وزير الدفاع المصري عبد الفتاح السيسي أبلغ إسرائيل بمجهوده للإطاحة بالرئيس مُجد مرسى قبلها بثلاثة أيام. وتحدث “دانيال” إلى القناة الثانية الإسرائيلية، قائلاً: طلب السيسي من إسرائيل مراقبة حركة حماس التي تحكم قطاع غزة. مضيفاً: كان السيسي يخشى حماس، لكن مخاوفه تلاشت بعد تأكيد إسرائيل أن كل شيء في غزة تحت الرقابة الصارمة. ونصحت إسرائيل السيسي

بتدمير الأنفاق، بحسب موقع “ميدل إيست مونيتور” البريطاني. وشدد دانيال على أن الانقلاب العسكري في مصر مفيد لإسرائيل، وكان “مطلباً ملحقاً” لإسرائيل وأمنها. ولم يتردد المحلل الإسرائيلي في تأكيد أخبار التواصل بين السيسي ومُجد البرادعي، وبين مسئولين في الحكومة الإسرائيلية. وذكر “دانيال” أن البرادعي التقى رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتيناهو مرة قبل الانقلاب، وأخرى بعده، وأن إسرائيل وعدت البرادعي بالمساعدة في الضغط باتجاه الاعتراف الغربي بالحكومة الجديدة (بعد مرسى)²⁵.

وقد كشفت الأحداث والاعترافات والتسريبات -مثل تسريبات ويكيليكس وتسريبات البريد الإلكتروني لسفير الإمارات بالولايات المتحدة يوسف العتيبة مؤخراً- عن ضلوع دول مختلفة في ذلك الخط الإسرائيلي ذاته سواء في دول الثورات أو دول الثورات المضادة.

ثالثاً- الثورات المضادة الإسرائيلية الهوى والهوية:

جاءت الثورات المضادة بمثابة إعادة المياه الإسرائيلية إلى مجاريها. من المهم ملاحظة ذلك. عينت مصر سفيرا جديدا في تل أبيب بعد أن ظل المنصب شاغرا منذ 2012 إثر سحب مرسى سفيره كما ذكرنا احتجاجاً على اعتداء الاحتلال على قطاع غزة. وبدون تمويه كانت إسرائيل من الدول السبابة إلى تأييد النظام العسكري الجديد في أعقاب التحرك العسكري في 3 يوليو 2013، بل إنها قامت بإطلاق حملات دبلوماسية في واشنطن والعواصم الأوروبية الكبرى من أجل دعم الوضع السياسي الجديد في مصر، حتى لا يصنف في خانة الانقلابات العسكرية، وحتى تمنع أي محاولات لفرض حصار دبلوماسي على القاهرة. ولم تمر هذه الجهود دون أن تكفل بالنجاح، حيث شهدت العلاقات المصرية-الإسرائيلية

²⁵ - انظر: روني دانيال: السيسي أبلغ إسرائيل بالإطاحة بمرسى...، موقع

العالم بالعربية، 7-8-2013، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/NDRdyo>

²⁴ - محسن صالح (رئيس تحرير)، الموقف الإسرائيلي من ثورة 25 يناير المصرية، تقرير معلومات 23، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ص 50.

تموًا غير مسبوق خلال فترة حكم السيسي الأولى، والتي كانت في كثير من الأحيان، مدفوعة من قبل السيسي نفسه.

تولى السيسي زمام الأمور في البلاد، باعتباره الحاكم الفعلي بعد الإطاحة بحكم «الإخوان المسلمين»، وكانت سيناء وما يحدث فيها من إرهاب، وتصاعد نشاط الجماعات الجهادية، واستهداف تلك المجموعات لمعسكرات الجيش وكمائنه، بمثابة الاختبار الأول للسيسي؛ لذلك استند السيسي في عملياته العسكرية المستمرة ضد الإرهاب في سيناء إلى شراكته الاستراتيجية والأمنية مع إسرائيل، والتي أعطت الضوء الأخضر للقوات المصرية لتنتشر في مناطق واسعة داخل شمال سيناء "المنطقة (ب)، والمنطقة (ج)"، لكي تتمكن من مواجهة الجماعات التكفيرية والمسلحة بالأسلحة الثقيل والمدركات والطلعات الجوية؛ بالمخالفة لما ينص عليه الملحق الأمني من "اتفاقية كامب ديفيد". ومن ثم، أصبحت مواجهة الجماعات المسلحة في سيناء من أهم الملفات الأمنية المشتركة بين البلدين؛ فقد أصبحت إسرائيل تتعاون مع مصر، من خلال قيامها بعدة طلعات جوية استخباراتية للكشف عن بؤر الإرهابيين. وانتقل ذلك من إطار سري، يراعي موقف الرأي العام المصري إلى إطار شبه علني لا يتفادى الجدل بل يثيره بطريقة من المهم الالتفات إلى دلالاتها.

وقد كشف المحلل العسكري الصهيوني روني دانيال أن السيسي -إبان شغله منصب وزير الدفاع- أبلغ إسرائيل بجهوده للإطاحة بالرئيس محمد مرسي قبلها بثلاثة أيام. وتحدث دانيال إلى القناة الثانية الإسرائيلية، أول أغسطس 2013، قائلاً: كان السيسي يخشى حماس، لكن مخاوفه تلاشت بعد تأكيد إسرائيل أن كل شيء في غزة تحت الرقابة الصارمة. وشدد دانيال على أن الانقلاب العسكري في مصر مفيد لإسرائيل، وكان "مطلباً ملحاً" لإسرائيل وأمنها. ولم يتردد المحلل الإسرائيلي في تأكيد أخبار التواصل بين السيسي ومحمد البرادعي، وبين مسؤولين في الحكومة الإسرائيلية، وذكر أن

البرادعي التقى ننتيا هو مرة قبل الانقلاب، وأخرى بعده، وأن إسرائيل وعدت البرادعي بالمساعدة في الضغط باتجاه الاعتراف الغربي بالحكومة الجديدة (بعد مرسي)²⁶.

وفيما تبقى من هذه الورقة، نضع أيدينا على التحول الكبير في السياسة العربية الرسمية العلنية ومواقفها الجوهرية وخطاباتها المعبرة تجاه المنطقة العربية وتحولاتها وفي قلبها وضعية إسرائيل، بالتوازي مع عمل إعلامي جبار لإعادة تشكيل صورة إسرائيل واليهود في العقل العربي التابع أو المتابع.

إن خطاب عبد الفتاح السيسي حول إسرائيل لم يكن أبعد مرمى من سياساته التي تجاوزت مقولته أنه لن يسمح بأن تكون سيناء قاعدة لتهديد أمن الجارة، وإلى ضرورة العمل من أجل مصلحة "المواطن" الإسرائيلي جنباً إلى جنب مصلحة المواطن الفلسطيني، وطلبه إذاعة خطاباته في الإذاعة الإسرائيلية وتكراره تفهمه لقلق المواطن الإسرائيلي تجاه السلام في المنطقة..²⁷، تجاوزت ذلك إلى: التأمين المصري العملي لإسرائيل بالقوات والأسلحة المصرية، وفتح أجواء وأراضي سيناء للتدخلات الإسرائيلية ولو بدون إذن مع إعادة تقليد استئذان مصر لإسرائيل في التحرك العسكري المصري داخل سيناء، فالدفاع عن إسرائيل في المحافل الدولية بما فيها أمام

²⁶ - المرجع السابق.

²⁷ - منذ خطابه الأول عن ثورة يوليو أثناء الاحتفال بذكرها في 23 يوليو 2014 عقب تنصيبه بنحو الشهر ونصف الشهر. ثم تكررت بعدها في محافل مختلفة داخليا وخارجيا حتى أمست ثابتاً من ثوابت خطاب السيسي عن الإسرائيليين. وقد جاء هذا الخطاب أثناء العدوان الإسرائيلي على غزة في أول اختبار لرد فعله فلم يذكر كلمة "عدوان" مرة واحدة إنما استبدل بها عبارة "الأزمة" و"الاعتقال": <https://goo.gl/jEMTnx> لقد تولى السيسي رئاسة الجمهورية بصفة رسمية في حزيران/يونيو 2014، وقال في خطابه الأول: "سنعمل على تحقيق استقلال دولة فلسطين وعاصمتها القدس الشرقية".

لأكثر من مرة، اجتمع السيسي بلجنة رؤساء المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة سواء زارهم أو زاروه وغيرهم من ممثلي اليهود في الغرب، ونقل لتلك اللجنة ذات مرة إعجابيه برئيس الوزير الإسرائيلي بنيامين نتنياهو لكونه "قائدا ذا قدرات عظيمة تؤهله لقيادة دولته، وتضمن تطور المنطقة وتقدم العالم"³⁰. ولم يكف السيسي عن تأكيده أنه ينظر نظرة مساوية بين الإسرائيليين والفلسطينيين ورغبته في مزجهم في شيء واحد بل تظهر نظرتهم مفضلة للإسرائيليين في بعض الأحيان. ففي الذكرى الثامنة والستين لذكرى نكبة 1948 على سبيل المثال يحرص على أن يشير إلى أنه "من كام يوم، كان فيه ناس بتحتفل بالانتصار والاستقلال، وناس بتحتفل بالانكسار والانهزام" .. ناس وناس بلا تمييز بين غاصب معتد وآخر معتدى عليه مغتصبة أرضه.. مجرد انتصار وهزيمة لا حق فيهما ولا باطل، في لغة جديدة على العرب وحكامهم مهما أوغلو من قبل في التقارب مع إسرائيل.

وخارجياً، صوتت الخارجية المصرية لصالح انتخاب إسرائيل عضواً بلجنة الاستخدامات السلمية للفضاء الخارجي في الأمم المتحدة. وفي الوقت الذي تمتع فيه كتب مفكرين إسلاميين من التداول بل يتم حرقها في المدارس المصرية بأيدي مسؤولين بوزارة التعليم، يفسح المجال للكتب الإسرائيلية في أجنحة معرض القاهرة الدولي للكتاب، ويتم ترجمة إصدار لصحفي بإذاعة الجيش الإسرائيلي إلى العربية. وقبلها يفاجئ متحف مصري الزائرين بتعليقه صورة جولدا مائير رئيس وزراء إسرائيل الراحلة بوصفها واحدة من أهم النساء الرائدات عالمياً. وبين آونة وأخرى يخرج إعلاميون تابعون لنظام السيسي يحبون الإسرائيليين على شاشات التلفاز، ويعلن عن زيارات بعضهم لتل أبيب والتقاءهم الحميم بمسؤولين إسرائيليين، ويكشف عن لعب محترفين مصريين في تل أبيب في الوقت

³⁰ - مصر وإسرائيل... التطبيع يبلغ أشده، 3-2016، الجزيرة نت، متاح على

الرابط التالي: <https://goo.gl/53XTSG>

اتهامات بانتهاك حقوق الإنسان، بل تأييد مصر لإسرائيل في تولي مناصب دولية ذات أهمية رمزية. هذا في الوقت الذي تستمر فيه مصر-السيسي في شن حملة ضارية متعددة المسارات والأدوات على المقاومة الفلسطينية: إعلامياً وقضائياً وأمنياً وسياسياً، ومحلياً وإقليمياً ودولياً²⁸، وتم إغلاق معايرها وتدمير وإغراق أنفاقها التي تمثل شريان الحياة لها. وتوقفت مصر عن اتخاذ أي موقف ذي بال أمام استمرار تهويد القدس وبناء المستوطنات الآكلة للضفة الغربية، بل كانت مصر -قبل الغرب والولايات المتحدة إلى درجة المقاطعة أوروبياً لمنتجات إسرائيل القادمة من مستوطناتها- متفهمة لضرب إسرائيل لغزة عام 2014 عقب الثالث من يوليو 2013. ومن المهم هنا أن نتذكر أن هذه العملية جاءت غالباً لاختبار رد فعل نظام السيسي الجديد القديم والذي يبدو أنه نجح فيه بجدارة بالمعيار الإسرائيلي.

ومما و جدير بالذكر أن تغييرات متتالية دخلت على مقررات الدراسة في مراحل التعليم الأساسي بمصر تلزم الطلاب بحفظ بنود معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام 1979، وتعدد مزايا السلام لمصر والدول العربية. وبهذه المناسبة يعترض وزير الخارجية المصري على وصف الأعمال الإسرائيلية ضد الفلسطينيين بـ"الأعمال الإرهابية"، ويقول شكري في 2 أغسطس 2016، ردًا على سؤال أحد الطلاب (الأوائل في الثانوية العامة) باعتبار ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين إرهاباً؟: إن وصف أحد بالإرهاب لا بد أن يكون علي اتفاق دولي²⁹.

²⁸ - في مايو/أيار 2015، أعلنت مصر رسمياً -عبر محكمة مصرية- اعتبارها حركة المقاومة الفلسطينية «حماس» جماعة إرهابية، ما أعطى انطباعاً للعالم أن إسرائيل تحارب الإرهاب، لا شعباً فلسطينياً مغتصبة أرضه ومهددة دماؤه، ومن ثم بدأت الصحافة العربية الاحتفاء بنظام السيسي وتشجيعه على إجراءاته التي يتخذها في صالح أمن إسرائيل. راجع أحمد جمال زيادة: مصر السيسي التي تحبها إسرائيل... مرجع سابق ذكره.

²⁹ - المرجع السابق.

الذي يعلن فيه رئيس اتحاد الكرة المصري عن الاستعداد لخوض مباريات بإسرائيل³¹.

وقبل أن تعلن الولايات المتحدة قرارها بنقل عاصمتها إلى القدس الشريف عاصمة لإسرائيل 8 ديسمبر 2017، من المهم تذكر أن السيسي ومتحدثي الخارجية المصرية قد مكثوا أربع سنوات يكررون أن عاصمة فلسطين هي القدس "الشرقية"؛ في تنازل واضح وصريح عن معظم المدينة أو ما يعرف -إسرائيلياً- بالقدس الغربية.

إبان العدوان الإسرائيلي على غزة أبريل-مايو 2016، برزت القاهرة بوصفها الوسيط الأكثر قبولاً في إسرائيل سواء من قبل المسؤولين الرسميين أو الأحزاب والرأي العام، إلى درجة اعتبار السيسي موحد الحزبين الكبيرين شديدي التنافس، فقد ذكرت صحيفة "هآرتس" العبرية حينها أن تصريحات السيسي تصب -ليس فقط في مصلحة ما تسميه السلام- بل في التوفيق بين الحزبين الإسرائيليين العمل والليكود، قائلة: "الوحدة ستأتي عن طريق القاهرة"، موضحة الزعيمين بسرعة دعم المبادرة المصرية.

كما ركزت هآرتس في نسختها الإنجليزية، على أن ما سموه «نداء السيسي للسلام» يأتي وسط محادثات الوحدة بين نتنياهو وزعيم حزب الليكود وهرتسوج زعيم حزب العمل. كما نقلت صحيفة "جيروزاليم بوست" عن مصادر في حزبي الليكود والعمل أن السيسي يدعم الجهود الرامية إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية في إسرائيل بمشاركة الحزبين. ونقلت الصحيفة عن هرتسوج قوله: "تصريح السيسي يعد إشارة إلى إظهار إرادة العالم العربي المعتدل"، و"من المهم للغاية أن نستمع إلى الرئيس المصري وندرس هذه الفرصة بصورة جدية ومسؤولة"، لتتساءل الصحيفة في النهاية عن قدرة السيسي على "المساعدة في تواجد حكومة وحدة وطنية في إسرائيل؟" وعليه، أكد مسئولون -في تقرير عرضته القناة العاشرة

الإسرائيلية- أنه إذا تم تشكيل حكومة وحدة وطنية، فإن نتنياهو وهرتسوج سيذهبان إلى مصر لإطلاق مبادرة سلام جديدة تحت إشراف السيسي³².

ولكن ماذا عن موقف السيسي من الطرف الآخر: الفلسطينيين؟ وماذا أراد نظام السيسي من تلك الوساطة ساعتها؟ من المهم أن نستمع إلى تحليل "الإذاعة الإسرائيلية" التي قالت ساعتها إنه "من المرجح أن الوساطة المصرية لن تكون بغير ثمن، خاصة أن مصر احتجت سابقاً على تخفيف الحصار عن قطاع غزة ومنح الأتراك بعض التسهيلات والامتيازات في القطاع، كجزء من اتفاق تطبيع العلاقات بين إسرائيل وتركيا، وربما تسعى عن طريق وساطتها إلى قطع الطريق على تركيا والحصول على امتيازات في القطاع الذي تشترك مع إسرائيل في محاصرته منذ أعوام". وذا نص لا يحتاج إلى بيان أو استنتاج، ولا نتعجب بعده من تذكير جيروزاليم بوست لنا بأن للسيسي "شعبية جارفة في إسرائيل؛ بفضل الموقف الصارم الذي أبداه تجاه حماس في عملية "الجرف الصامد"، كذلك بفضل قمعه العنيف لجماعة "الإخوان" الإرهابية"³³.

لقد استفاد السيسي من حالة الفراغ الأيديولوجي لمؤيديه، حيث عمل على إعادة تسويق العلاقات المصرية الإسرائيلية، باعتبارها ضرورة في ظل وجود عدو إقليمي مشترك "حركة «حماس»"، وهو امتداد لعدو داخلي "«الإخوان المسلمين»"، ونقل بذلك إسرائيل من خانة "صراع وجود" إلى خانة الشريك الضروري.

لقد ظهر التطور العلني للعلاقات المصرية -الإسرائيلية جلياً، من خلال مشاركة السفير المصري حازم خيرت في مؤتمر

³² - محمد جعفر، خطاب السيسي في ميزان الصحافة الإسرائيلية، 18-5-2016،

موقع أهل مصر، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/Quu7TC>

³³ - المرجع السابق.

³¹ - المرجع السابق.

"هرتسيليا" السادس عشر في إسرائيل، وعنوانه "أمل إسرائيلي، رؤيا أم حلم؟"، وتعتبر تلك المرة الأولى التي تشارك مصر بصفة رسمية في مؤتمر "هرتسيليا" المتخصص في مراجعة السياسات الأمنية والدفاعية للدولة العبرية.

بدا العلاقة بين البلدين ذاهبة إلى مدى أبعد حين قام وزير الخارجية المصري سامح شكري بزيارة لإسرائيل في زيارة تعد الأولى من نوعها منذ 2007، حيث التقى رئيس الوزراء نتنياهو في مقر رئاسة الوزراء (في القدس) عوضاً عن تل أبيب، في إشارة واضحة لتخطي الثوابت الدبلوماسية ما قبل 2013 التي طالما تمسك بها الرؤساء المصريون حتى حسني مبارك، بل أثناء فترة عدلي منصور. ولعل وقوف سامح شكري أثناء تلك الزيارة، إلى جانب رأس تمثال تيودور هرتزل -الزعيم التاريخي للصهيونية- كان بمثابة تصالح مع تاريخ نشأة إسرائيل، في تناقض مع الأسس التاريخية العربية. وقامت رئاسة الوزراء الإسرائيلية بنشر صورة نتنياهو مع شكري أثناء مشاهدتهما نهائي كأس الأمم الأوروبية، في جو حميمي، يعكس عدم وجود أي تخوف لدى النظام المصري من ردود فعل محلية محتملة حول تطور العلاقات المصرية الإسرائيلية.. فأظهرت الزيارة كيف نُقلت تلك العلاقات إلى مستوى التحالف العلي، بعيداً عن سياسة الغرف المغلقة السابقة³⁴.

تتقدم إسرائيل اليوم ليس بوصفها طالبا للسلام بقدر ما هي مفتاح حل لمشكلات مصر والعرب الداخلية والإقليمية والعربية. فبالإضافة إلى دعم 3 يوليو ضد الإخوان وحماس معاً، يتم طرح إسرائيل وسيطاً بين مصر وإثيوبيا في أزمة سد النهضة. فقد جاءت زيارة شكري المشار إليها إلى القدس عقب زيارة تاريخية قام بها نتنياهو لدول حوض النيل، وجاء وجود شكري في القدس ليطمئن الرأي العام المصري بأن

وجود إسرائيل في منطقة حوض النيل، هو وجود الحليف وليس العدو، كما حمل تطلعات القاهرة إلى وساطة إسرائيلية فيما يخص الأزمة مع إثيوبيا، وذكر بعض المحللين أن القاهر وتعتقد بأن إسرائيل تمتلك القدرة على دفع إثيوبيا إلى التفاوض على حصة عادلة لمصر من مياه النيل³⁵.

ولم تكن هذه التطورات تعني أن التحالف صار علنيا بصورة مطلقة، فلم يزل الإعلام المصري يحتفظ بقدر من التمويه بتجديد فقرات التهجم على إسرائيل لفظيا واتهامها بدعم الإرهاب في سيناء والتعاون مع أعداء مصر لاسيما تركيا، أو عرقلة جهود مصر من أجل السلام والاستقرار أو الاحتفاظ بمطامع في مصر وخاصة سيناء، وهكذا، لكن دون أية انتقادات للتوجه الرسمي وسياساته الطبيعية. ويعني ذلك بالنسبة لإسرائيل أن الثقة المتبادلة لا تزال محصورة أو محاصرة داخل القنوات الرسمية وبعيدة عن فضاء الرأي العام المصري الذي لا يزال النظام يتحسب لغضبه ولو نسبياً.

ويمكن أن نختتم الموقف المصري بالإشارة إلى خطبة السيسي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سبتمبر الفائت، والتي دارت في جوهرها حول ضرورة الحفاظ على الدولة الوطنية الحديثة وبنيتها وخاصة ضد دعوى تغيير هويتها، والتي أتى فيها على ذكر فلسطين وإسرائيل على النحو الآتي:

((ثانياً- إن الوقت حان لمعالجة شاملة ونهائية لأقدم الجروح الغائرة في منطقتنا العربية وهي القضية الفلسطينية التي باتت الشاهد الأكبر على قصور النظام العالمي، عن تطبيق سلسلة طويلة من قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن. إن إغلاق هذا الملف من خلال تسوية عادلة تقوم على الأسس والمرجعيات الدولية وتنشئ الدولة الفلسطينية المستقلة على حدود عام 67 وعاصمتها القدس الشرقية، هو الشرط الضروري للانتقال بالمنطقة كلها إلى مرحلة

³⁴ - محمد سليمان، توجه السيسي الجديد نحو العلاقات المصرية الإسرائيلية، وقد نُشرت المقالة في الأصل على موقع "منتدى فكرة":

<https://goo.gl/zwbF3y>

³⁵ - المرجع السابق.

الاستقرار والتنمية، والحك الاساسي لاستعادة مصداقية الأمم المتحدة والنظام العالمي. ولاشك أن تحقيق السلام من شأنه أن ينزع عن الإرهاب إحدى الذرائع الرئيسية التي طالما استغلها كي يبرر تفشيه في المنطقة، وبما يضمن لكافة شعوب المنطقة العيش في سلام وأمان. فقد آن الأوان لكسر ما تبقى من جدار الكراهية والحقد للأبد، وبهمني هنا أن أؤكد أن يد العرب مازالت ممدودة بالسلام وأن تجربة مصر تثبت أن هذا السلام ممكن، وأنه يعد هدفا واقعيا يجب علينا جميعا مواصلة السعي بجديته لتحقيقه)).

ثم خرج السيسي، كعادته، عن النص قائلًا: (اسمح لي فخامة الرئيس أن أخرج عن النص الموجود.. وأتوجه بكلمة ونداء إلي من يهمهم هذا الأمر. "أوجه كلمتي أو ندائي الأول إلي الشعب الفلسطيني وأقول له: "مهم أوي الاتحاد خلف الهدف وعدم الاختلاف وعدم إضاعة الفرصة والاستعداد لقبول التعايش مع الآخر مع الإسرائيليين في أمان وسلام وتحقيق الاستقرار والأمن للجميع". وأقول وأوجه ندائي للشعب الإسرائيلي: لدينا في مصر تجربة رائعة وعظيمة في السلام معكم منذ أكثر من أربعين سنة ويمكن أن نكرر هذه التجربة وهذه الخطوة الرائعة مرة أخرى.. وأقول أمن وسلامة المواطن الإسرائيلي جنباً إلي جنب مع أمن وسلامة المواطن الفلسطيني.. وندائي لكم أن تقفوا خلف قيادتكم السياسية وتدعموها ولا تترددوا.. وأنا هنا أخطب الرأي العام في إسرائيل "بأقول" له لا تتردد واطمن نحن معكم جميعاً من أجل إنجاح هذه الخطوة وهذه فرصة قد لا تتكرر مرة أخرى". "وكلمتي الأخرى وندائي الأخير إلي كل الدول المحبة للسلام والاستقرار وإلي كل الدول العربية الشقيقة، أن تساند هذه الخطوة الرائعة، وإلي باقي دول العالم أن تقف خلف هذه الخطوة التي إذا نجحت ستغير وجه التاريخ". إلي

القيادة الأمريكية.. وإلي الرئيس الأمريكي "أنا لدينا فرصة لكتابة صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية من أجل تحقيق السلام في هذه المنطقة"³⁶.

وفي هذا السياق التقى السيسي لأول مرة علانية بنتنياهو، وجرى السجال المعتاد حول ذلك اللقاء، لكن التعليق الأهم عليه جاء على لسان الكاتب بالأهرام عماد جاد؛ حيث نشر مقالا بجريدة "الوطن" الموالية للنظام جاء فيه: (..التقى الرئيس بالعديد من الرؤساء والمسؤولين، وجميعها كانت لقاءات مهمة، ولكن البعض منا لم يتوقف إلا أمام لقاء الرئيس مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، وهناك من اعتبر اللقاء في حد ذاته مصيبة وتطبيعاً ولقاءً مع العدو، إلى غير ذلك من ألفاظ ومصطلحات، وقد تجاهل هؤلاء أننا وقّعنا معاهدة سلام مع الدولة العبرية عام 1979، وأن إسرائيل انسحبت من كل الأراضي المصرية التي كانت تحتلها حتى الكيلومتر الأخير، وأن مشكلتنا مع إسرائيل كانت، ولا تزال، هي القضية الفلسطينية، أي الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وفي القلب منها مدينة القدس الشرقية وقطاع غزة، أو الأراضي التي احتلت في عدوان يونيو 1967. وأنه طوال قرابة أربعة عقود منذ توقيع المعاهدة مع إسرائيل والعلاقات تتراوح ما بين السلام البارد والحرب الباردة بسبب التنافس الإقليمي المصري الإسرائيلي، وبسبب استمرار الاحتلال ومصادرة الأراضي وإنشاء المستعمرات عليها. ولكن علينا في الوقت نفسه أن نضع المصلحة الوطنية المصرية في المقدمة ونتحلى بالموضوعية، ونعترف بأن إسرائيل لعبت دوراً مهماً في دعم ثورة الشعب المصري في الثلاثين من يونيو، ومارست الوفود التي أرسلها بنيامين نتنياهو ضغوطاً

³⁶ - كلمة السيسي أمام الأمم المتحدة - نص كامل بالفيديو، 19-9-2017، منشورة على موقع مصراوي، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/1Yh3YY>

كبيرة على أعضاء في الكونجرس من أجل تبني رؤى موضوعية تجاه الأحداث في مصر³⁷.

بمذا تتجلى تحولات في المفاهيم الأساسية للدولة الوطنية والمصلحة الوطنية والقضية العربية وفي قلبها فلسطين؛ ومن العلاقة المعيارية مع إسرائيل التي تقوم على التسليم بما أمرا واقعا والاستفادة منها حتى في إعادة الأمور الداخلية لمصر إلى نصابها وفق رؤية النظام القائم والمتحدثين نيابة عنه. لكن - على الرغم من ذلك- ظهرت أصوات أخرى تنتقد ذلك التحول؛ فيكتب عمرو الشوبكي على سبيل المثال: (والحقيقة أن التحول الذي عرفه شكل ومضمون الخطاب الرسمي في السنوات الأربع الأخيرة لافت، فقد عكس قطيعه مع كل المراحل السابقة، سواء تلك التي حاربت فيها مصر إسرائيل، أو تلك التي أقامت سلاما معها، فكلامها لم يتجاهل أن إسرائيل تمثل آخر دولة احتلال عنصري في العالم، وأنه حتى الرئيسين السادات ومبارك اللذين التزما بالسلام أذانا سياستها. الخطاب الرسمي الحالي غاب عنه أي إدانة صريحة أو مستترة للاحتلال الإسرائيلي، وأصبح يتكلم عن شعبين متناحرين أو بلدين متصارعين يتحملان نفس المسؤولية في مآسي الشعب الآخر، وليس دولة احتلال تقهر شعبا وتحتل أرضه وترفض إعطاءه حقوقه في بناء دولته المستقلة. ولذا بدا غريبا أن يطالب الرئيس السيسي، في كلمته بالأمم المتحدة، الشعب الفلسطيني (المقهور والواقع تحت الاحتلال) بأن يقبل العيش بأمان مع الشعب الإسرائيلي، ثم طالب الأخير: «بأن يقف وراء قيادتهم لإنجاح عملية السلام»، في حين أن الواقع يقول إن القيادة الإسرائيلية لا ترغب في أي سلام وتنتهج

سياسة قائمة على التوسع والاستيطان تحت غطاء أمريكي ودولي³⁸.

في هذه الآونة منعت إسرائيل مسلمي فلسطين من الصلاة في المسجد الأقصى وأوقفت الأذان، ثم أعقبا قرار ترامب بنقل سفارة دولته إلى القدس.. فكيف كان موقف مصر والعرب؟

وليس المقصود البحث في دور السيسي في مستجدات المنطقة بقدر ما نسلط الضوء على إسرائيل نفسها: مكانة وصورة في المنطقة العربية، وكذلك تصور الإسرائيليين عن وضعيتهم وعوامل التمكين لها، ودور الأنظمة العربية في ذلك. فهذه التحولات لم تكن إسرائيلية إنما كانت بالأساس عربية في مقدمتها برز النظام المصري ما بعد 3 يوليو، ومن ورائه جاءت السعودية والإمارات والأردن والبحرين وبقية العرب بما فيها فلسطينيون ضالعون في العملية ذاتها المتعلقة بتأكيد مركزية إسرائيل في المنطقة العربية. وقد شهدت السنوات الأخيرة انتقال علاقات تلك الدول بإسرائيل من السر إلى العلانية ومن السبل غير المباشرة إلى العلاقات المباشرة وعلى مستويات رسمية عالية.

ففي عام 2015، أشارت صحيفة "لوبوان" الفرنسية إلى أن مسئولين من السعودية وإسرائيل التقيا خمس مرات منذ عام 2014 ومنتصف 2015. وتمحورت تلك اللقاءات حول سبل مواجهة "الخطر الإيراني" سياسياً واقتصادياً. وتضيف صحيفة "هآرتس الإسرائيلية" لقاءً سادساً تم في تل أبيب في يوليو ٢٠١٦ بين الجنرال السعودي السابق أنور عشقي والمدير الحالي لمركز الشرق الأوسط للدراسات الاستراتيجية (الذي كان برفقة وفد من رجال الأعمال السعوديين) ومدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية غولد شاركا، كما التقى الوفد السعودي بأعضاء من الكنيست الإسرائيلي

³⁷ - عماد جاد، لقاءات الرئيس في نيويورك، جريدة الوطن، مصر، 9/12/

2017، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/jSksox>

³⁸ - عمرو الشوبكي، مصر وإسرائيل، المصري اليوم، 9/23، 2017، متاح على

الرابط التالي: <https://goo.gl/PdM77M>

خلال تلك الزيارة³⁹. وقال عشقي، في مقابلة مع قناة "دويتشه فيله" الألمانية نشرتها 2017/6/27 إن السعودية ستطبع العلاقات مع إسرائيل إذا قبلت الأخيرة بالمبادرة العربية، وبعد التطبيع ستكون العلاقة بحسب المصالح المشتركة، وأن تطبيع العلاقات مع إسرائيل رهن بموافقة الثانية على المبادرة العربية، وبعد التطبيع ستكون العلاقة بين الجانبين بحسب المصالح المشتركة وبحسب المعاملة بالمثل⁴⁰.

تأتي صفقة تيران وصنافير بين مصر والسعودية ذات خلفية إسرائيلية من الأهمية بمكان تقديرها حق قدرها. فقد أشارت صحيفة جيروزاليم بوست إلى أن الاتفاق المصري-السعودي حول الجزيرتين، وموافقة تل أبيب عليه (والذي بدا شرطاً وأعلنت مصادر وتسريبات عن ذلك خاصة محادثة وزير الخارجية المصري مع المستشار القانوني لتنتياهو ومراجعتهما بنود الاتفاق المصري السعودي بندا بندا)، يشير على الأرجح إلى "استمرار الاتصالات السرية والمصالح المشتركة ما بين السعودية وإسرائيل"⁴¹.

وتعبيراً عن تحليل رائج يرى المحلل السياسي الإسرائيلي إيلي نيسان أنه "ربما يشكل تعرض السعودية وإسرائيل للتهديد الإيراني قاسماً مشتركاً بينهما.."، ويقول: ..هناك علاقات غير معلنة استراتيجية واقتصادية واستخباراتية بين البلدين. بالتأكيد ساهمت زيارة ترامب في تطوير العلاقات بين السعودية وإسرائيل في اتجاه محاربة الإرهاب. تتعرض

³⁹ - صحيفة بريطانية: الرياض وتل أبيب تبحثان إقامة علاقات اقتصادية، 19-6-2017، فرانس 24، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/Yo1oBn>

⁴⁰ - السعودية تمهد لمرحلة جديدة من التطبيع مع إسرائيل.. عشقي ووعده بلفور الجديد، 28-6-2017، الصباح اليمني، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/FXvvn4>

⁴¹ - السعودية وإسرائيل- صفقة تلوح في الأفق قد تغير وجه المنطقة، 27-6-2017، DW عربية، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/Kny8CR>

إسرائيل والسعودية وبعض الدول السنينة الأخرى للإرهاب سواء من قبل داعش أو من قبل إيران وبعض الجهات التي تعمل تحت إمرة إيران كحزب الله"، ويمتد التعاون بين الجانبين إلى المجال الاقتصادي أيضاً، بحسب إيلي نيسان، الذي أشار إلى احتمالية فتح السعودية مجالها الجوي قريباً أمام الطيران المدني الإسرائيلي.

في المقابل كتب الكاتب مساعد العصيمي، في صحيفة الرياض السعودية مقالاً نشر في السادس من يونيو 2017، دعا فيه إلى حسم الأولويات: "هل هناك عدو أشد من إيران علينا وعلى بلادنا.. وهل إسرائيل كما إيران في التهديد والتأثير والإقلاق وبث الحقد والكراهية؟" ودعا إلى التركيز على "العدو الحقيقي" (أي إيران) على حد تعبيره. كما دعا للالتفات إلى المصلحة أولاً: "لنحكم العقل ونديره نحو مصالحنا ونعيد تداول المسائل اقتصادياً وسياسياً وتعاملياً وحتى تاريخياً في إطار حسابات الربح والخسارة وحسابات المصالح والاستقرار، كي نعلم من أشد خطراً إيران أو إسرائيل"⁴².

وموضوع التعاون الاقتصادي بين السعودية وإسرائيل ليس جديداً، ففي عام 2010، نشرت صحيفة "الفائنانشال تايمز" عن تعاون اقتصادي بين مجموعة IDB الإسرائيلية الضخمة التي كان يرأسها الملياردير الإسرائيلي "نوحى دانكنر" من جهة، وجهاز قطر للاستثمار ومجموعة العليان السعودية من جهة أخرى. وفي منتصف العام 2012 كتب الأمير لواء ركن نايف بن أحمد بن عبد العزيز، (أحد القادة العسكريين السعوديين، متخصص في مجالات العمليات الخاصة والحرب الإلكترونية)، مقالا في إحدى المجلات التابعة للقوات المشتركة الأمريكية، تحدث فيها بإيجابية عن إسرائيل وعن ضرورة تقوية العلاقات بين بلاده وتل أبيب، مادحاً الرئيس الإسرائيلي

⁴² - المرجع السابق.

الترتيبات في 24 يونيو 2017، جاء الكشف عن محادثات اقتصادية بين إسرائيل والسعودية؛ حيث أكدت صحيفة "ذا تايمز" البريطانية أن الطرفين يُجريان محادثات لإقامة علاقات اقتصادية، تبدأ صغيرة وذلك من خلال السماح للشركات الإسرائيلية بالعمل في الخليج، والسماح لشركة الطيران "العال" الإسرائيلية بالتحليق فوق المجال الجوي السعودي.

ليس هذا فقط، بل ظهرت بوضوح ملامح التقارب، عندما شارك رئيس أركان الجيش الإسرائيلي غادي أيزنكوت، مع رؤساء أركان جيوش كل من (السعودية والإمارات والأردن ومصر)، وقادة هيئة الأركان في دول غربية ومن حلف شمال الأطلسي، وغيرها في اجتماع لقادة هيئة الأركان المشتركة الأمريكية المستضيفة للمؤتمر الثاني لدول التحالف الدولي لمحاربة تنظيم "داعش"، وذلك جاء بهدف تمكين "إسرائيل" من المشاركة في إدخال تعديلات على هيكلية المؤتمر للمشاركة فيه، رغم عدم مساهمة تل أبيب بشكل رسمي في هذا التحالف، بل إنها لم تتلق دعوة لحضور المؤتمر الأول لقادة التحالف، ليس هذا فقط ما يؤكد مشاركة "إسرائيل" في التحالف، بل إن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه يعلون أعلن مشاركة دولته في التحالف، قائلاً: "من المخرج للدول العربية إعلان مشاركتنا في الععلن".

ليس هذا فقط، ففي السادس من سبتمبر/أيلول 2017، أي قبل توارد الأنباء عن زيارة ابن سلمان لـ"إسرائيل" بيوم واحد، وصف نتنهاو خلال مشاركته في احتفال رفع الكؤوس احتفالاً بالسنة العبرية الجديدة في مبنى وزارة الخارجية في القدس الغربية، العلاقات مع الدول العربية بأنها الأفضل وتسجل رقمًا قياسيًا غير مسبوق في تاريخ هذه العلاقات، قائلاً: "التعاون مع الدول العربية أكبر من أي فترة كانت منذ إقامة "إسرائيل" وما يحدث اليوم مع كتلة الدول العربية لم يحدث مثله في تاريخنا، وعمليًا التعاون قائم بقوة وبمختلف الأشكال والطرق والأساليب رغم أنه لم يصل حتى الآن

السابق، شيمون بيريز، مؤكداً على ضرورة أن يستثمر الجانبان في تقوية أواصر التعاون والتلاقي بين الفلسطينيين والعرب عمومًا والإسرائيليين⁴³. وقبل أقل من ثلاثة أسابيع على بدء العدوان الإسرائيلي على غزة في 2014، كتب الأمير ترك الفيصل لـ"مؤتمر إسرائيل للسلام" مقالاً يدعو للتطبيع، وقال: "أحلم بيوم أتمكن فيه من توجيه الدعوة، ليس للفلسطينيين فقط، بل للإسرائيليين، للمجيء وزيارتي في الرياض"⁴⁴.

في ظل العوامل سالفه الذكر، يبدو أن السعودية وإسرائيل رغبتا في تعضيد علاقتهما، من خلال اختراق المستويين العسكري والاقتصادي، وكذلك الانتقال إلى مرحلة العلاقات العلنية الرسمية، خاصة أن هناك تقارير تفيد بسعي السعودية للحصول على تعاون إسرائيلي في إدارة مضيق باب المندب وخليج عدن لقطع إمدادات إيران عن الحوثيين، وأنها، أيضاً، وقعت مذكرة تفاهم لشراء ونصب منظومة القبة الحديدية ومنظومة صواريخ "حيتس" عبر الشريك المصنع "رايثون" للصناعات الدفاعية؛ وهي شريك مع شركة رفايل الإسرائيلية. ومن هنا، جاء دور جزيرتي "تيران وصنافير" لتصبحا مدخل التطبيع العلني بين السعودية وإسرائيل. فوفقاً لما أورده تقرير "المونيتور" على لسان مصدر مُطلع داخل القصر السعودي، فإن طلب الحصول على الجزيرتين من مصر لم يكن طلب سعوديًّا خالصًا، بل هو طلب إسرائيلي نفذته السعودية؛ وهو الطلب الذي تم تقديمه عبر مسؤولين إسرائيليين لمساعدتي الملك سلمان خلال عطلة الصيف التي قضاها في مدينة "كان" الفرنسية عام 2015. وفي خضم ترتيبات نقل جزيرتي "تيران وصنافير" إلى السيادة السعودية، والتي كان آخرها تصديق السيسي على الاتفاقية المتعلقة بهذه

⁴³ - محمد محمد السيد، من عبد الناصر إلى تيران وصنافير: رحلة التطبيع السعودي الإسرائيلي، مركز البديل للتخطيط والدراسات الاستراتيجية، 30-6-2017، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/URu5DN>

⁴⁴ - المرجع السابق.

خاصة بعد ثورات العرب 2011، وبالأشد من منتصف 2013.

وتلعب تغريدات رئيس شرطة دبي دورا مهما للكشف عن الخلفية الثقافية للهولة الإماراتية نحو ترويح "حق إسرائيل" التاريخي والواقعي في التطبيع والانضمام إلى جامعة الدول العربية، وأن تبقى دولة واحدة تضم إليها الفلسطينيين باعتبارهم أبناء العمومة.

وبالمثل تأتي البحرين من البوابة الثقافية؛ باسم التسامح الديني ودور كل من الفن والثقافة والمتاحف والزيارات الشعبية المتبادلة في تدوير جبال الجليد التي لم يعد لها مكان في المناخ الجديد للمنطقة.

وهكذا يتوالى العرب على مشروع كبير يكمل التطبيع الذي أخذ أربعة عقود منذ كامب ديفيد المصرية الإسرائيلية برعاية الولايات المتحدة، ليأتي مشروع ترامب لترسيخ مركزية إسرائيل في المنطقة ليس فقط من الناحية القانونية والدبلوماسية، ولكن من ناحية مجالات التعاون الشاملة التي غالبا ما تظهر فيها يد إسرائيل باعتبارها هي اليد العليا القادرة على الإنتاج والعطاء ويد العرب هي التي تدفع الثمن.

خاتمة:

في كلمته أمام مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأمريكية يوم 14 من فبراير 2016، أعلن نتنياهو أن الوقت حان لبعض الدول العربية التي تربطها علاقات سرية بـ"إسرائيل" للاعتراف علنا بتلك العلاقات؛ مؤكداً أن الدول العربية الأكثر اعتدالاً ترى "إسرائيل" كحليف وليست عدواً، في الوقت الذي يجمعهم صراع مشترك ضد إيران وتنظيم داعش، ونظرة الدول العربية الرئيسية تغيرت تجاه "إسرائيل". وواضح أن هذا هو الذي يجري العمل عليه على قدم وساق ضمن عملية كبرى لإغلاق القضية على جروحها؛ وتمكين اليهود من القدس وإعادة رسم الأرض المحتلة بالتبادل مع أرض

للحظة العلنية، لكن ما يجري تحت الطاولة يفوق كل ما حدث وجرى في التاريخ".

ووفقا لصحيفة "يديعوت أحرونوت"، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تجري اتصالات سرية مع السلطة الفلسطينية والسعودية والأردن لتنسيق أول رحلة طيران لحجاج فلسطينيين من مطار "بن غوريون" إلى السعودية. وفي إبريل الماضي، عرض وزير النقل والاستخبارات الإسرائيلي، يسرائيل كاتس، على جيسون غرينبلات، ممثل الرئيس الأمريكي، خطة "سكة قطار السلام الإقليمي"، والتي تتحدث عن ربط إسرائيل بالأردن ومنها بالسعودية ودول الخليج عبر شبكة سكك حديد تسمح للدول العربية بمنفذ إلى البحر المتوسط. وهو المشروع الذي ستموله شركات خاصة بهدف الربح المالي.

إن الخطوات التطبيعية الواسعة التي اتخذتها المملكة مؤخراً، كانت في ظل وجود محمد بن سلمان، حاكماً فعلياً للبلاد، وفقاً للعديد من التقارير الدولية. وبعد تولي بن سلمان ولاية العهد، ورصد الاحتفاء الإسرائيلي الشديد بهذه الخطوة. فمن المتوقع أن يتخذ بن سلمان خلال السنوات القادمة خطوات متقدمة للغاية في علاقته بإسرائيل، لم يسبقه بها أحد من قادة الدول العربية تاريخياً.

ومن ناحية أخرى، فلقد قفزت إسرائيل مبكراً إلى الجيب ثم القلب الإماراتي، وإذ يمكن عد العام 2004 عام التحول الكبير في السياسة الإماراتية بوفاة الشيخ زايد بن سلطان ومباشرة ولي العهد محمد بن زايد لمهام الحاكم الفعلي للإمارات، فيمكن عدّه أيضاً العام الأبرز للاختراق الإسرائيلي للسياسة والاقتصاد الإماراتيين. فقد فتحت دبي مبكراً الباب الخلفي أمام رجال الأعمال اليهود بدءاً من تجار الماس العالميين مثل ليف ليفيف وبيبي شتاينميتز، فالأزياء والمشاة، وصولاً إلى تجارة السلاح وأنظمة المراقبة المتطورة التي تدار من تل أبيب واستعانة الإمارات بأقمار التجسس الإسرائيلية؛ الأمر الذي انتقل من المحدودية إلى السعة ومن السر إلى شبه العلانية

مصرية في سيناء، وضمن إعادة ترسيم كبرى للمنطقة أقطارا وطوائف وجماعات وإثنيات.

الدلالة الأهم التي برزت من مرحلتي الثورة والثورة المضادة وبالنظر إلى الخطاب الإسرائيلي والعربي الرسمي والغربي في كثير منه، هو طمس الفارق بين إسلاميين معتدلين وآخرين متشددين، وقصر مفهوم الاعتدال على الأنظمة الديكتاتورية التي -رغم الاعتراف بديكتاتوريتها وهدرها لكل مبادئ حقوق الإنسان والحريات- إلا أنها متماشية مع المعايير الإسرائيلية والتي أهمها ضمان أمن إسرائيل والمشاركة في استقرارها باسم الالتزام بمتطلبات السلام. هذه الملاحظة في غاية الأهمية. إن المفاهيم السياسية التي يتم بها تصوير واقع ومجريات المنطقة باتت تستند إلى مرجعية إسرائيلية تتبعها الأنظمة الحاكمة وأجهزتها العسكرية والأمنية والإعلامية شبرا شبرا وذراعا ذراعا وتؤيدها القوى الغربية الرسمية وبعض غير الرسمية. وبناء عليه تسارعت وتيرة الترويج لكون الإخوان المسلمين متشددين ثم إرهابيين، وأنه لا فارق بين الإخوان والقاعدة ثم تنظيم الدولة.. الأمر الذي سبق إشاعته نسبيا عن المقاومة الفلسطينية، ثم جرى التوسع فيه بعد موجتي الثورات والثورات المضادة.

وخلاصة القول: إنه كما أن العامل المساعد الأول للمشروع الصهيوني اليوم هو استبدال النظم وصراع المحاور في المنطقة بين العرب والمسلمين، فإن التحدي الأساس البارز أمام استمرار هذا المشروع باعتراف أطرافه كافة يتمثل في الشعوب والإسلام والرابطة بينهما. ومن ثم فإن الواجب المباشر العمل على تعزيز المشروع الحضاري الإسلامي بوصفه الدرع والسهم الأساسي في المواجهة. وهذا المشروع ليس من نوعية المشروعات السياسية والبرامج الحزبية إذ هو حالة أمة تتعدد مجالات فعلها ومسارات البناء فيها بطول العالم وعرضه. وبناء عليه فإن الوعي بتحويلات المنطقة العربية في قلب الأمة الإسلامية وجهود مركزة لإسرائيل في قلبها -ركنا أساسيا وشرطا

ضروريا- يفرض على الجميع: دولا وحكومات، وشعوبا وجماعات، وأفرادا في كافة المواقع والتخصصات، ممن لا يزالون يؤمنون بالأمة وقضيتها، ووحدها وحريتها، وحققها في الاستقلال والتقدم، هؤلاء جميعا عليهم أن يجددوا وجهتهم وجهودهم من أجل استرداد الذات والحفاظ على ما تبقى منها.

إن مواجهة المشروع الصهيوني وحالة التصهين الراهنة لا تقتضي ترك المسار المقاوم لمسار آخر، ولا هدم ما تم بناؤه أثرًا عن حالة انفعالية غاضبة أو ما شابه، بقدر ما تفرض استكمال السير والإصرار على مواصلته والمزيد من تجميع الجهود وتنسيقها، وتوجيه قدر أكبر من هذه الجهود باتجاه فلسطين والقدس والدفاع عنهما.

ومن ثم يجب تجديد العمل على محاور تجديد وحفظ الهوية القائمة على دوائر الانتماء المتحاضنة، والاحتفاظ بالوعي الديني والتاريخي الواصل حاضر القدس وفلسطين بماضيها. كذلك يجب تجديد جهود الدعوة والتربية والتنشئة الحضارية على قيم هذه الأمة، فأمتنا أمة قيم كما هتف العلامة حامد ربيع من قبل. ومن ثم تتضافر الجهود الحقوقية والقانونية والشرعية والفكرية والخيرية.. للدفاع عن الأرواح والأعراض والأموال التي يستهدفها مشروع التصهين والأسرلة القائم.. ومن مجموع هذه الجهود العريضة والمتنشرة نأمل أن نوقف تقدم هذه الهجمة، وأن يجدد الله تعالى لنا أمر رشد يعز فيه الحق وأهله.
